رسالة ملكية إلى الندوة الدولية حول
«الجهاد البحري في التاريخ العربي والاسلامي»

وجه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني رسالة إلى المشاركين في الندوة العلمية الدولية حول موضوع «الجهاد البحري في التاريخ العربي الاسلامي» المنعقدة بالرباط. وفي ما يلي نص الرسالة الملكية التي تلاها السيد محمد الكتاني مكلف بمهمة في الديوان الملكي خلال الجلسة الافتتاحية لهذه الندوة التي نظمتها تحت الرعاية الملكية، جمعية أبي رقراق، بتعاون مع اللجنة المغربية للتاريخ البحري، في الفترة ما بين 23 و26 محرم 1418 الموافق لـ30 ماي وثاني يونيو 1997.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه .

حضرات السادة والسيدات

يطيب لنا أن نعبر لكم بادئ ذي بدء عن تقديرنا البالغ لملتقاكم العلمي هذا الذي تفتتحون أشغاله والذي سينكب على دراسة موضوع هام من صميم التاريخ العربي الاسلامي ومقاربته من وجهات نظر متعددة لطائفة من الباحثين والمؤرخين المتخصصين.

أجل، لقد وفقت جمعية أبي رقراق في اختيار موضوع هذه الندوة في نظرنا لاعتبارين.

- الاعتبار الاول هو أن هذه الجمعية الناهضة بعدد من مشاريع التنشيط الثقافي والاجتماعي بمدينة سلا قد اختارت موضوعا يهم تاريخ هذه المدينة ويخصها على نحو متميز، فإننا نعلم جميعا أن هذه المدينة حين تذكر في سياق تاريخ الجهاد البحري بالمغرب أو تذكر في سياق تاريخ

القرصنة فإنها تثير في الذاكرة عدة تداعيات منها الاسطوري الشعبي ومنها التـاريخي الموضـوعي. ذلكم أن تضـاريس الطبـيـعـة جـعلت هذه المدينة في مقدمة المدن الساحلية المغربية المعروفة في تاريخ الجهاد البحري.

فـهي تقع في مـصب نهر أبي رقـراق وتشكل مـرفـأ منيـعـا ذا امـتـداد داخلي في النهر يجعل منها مخبأ وقاعدة في نفس الوقت. وعندما تتناولون موضوع الجهاد البحري المغربي ستجدون أن هذه المدينة كانت إحدى قواعده التـاريخيـة غير أن المصادر التاريخية العربيـة لم تول الغرب الاسلامي ولا سيما الشاطئ الأطلسي المغربي ما يستحقه من الاهتمام وفي جملة ذلك مدينة سلا .

- أما الاعتبار الثاني الذي يجعل موضوعكم هذا موضوعا هاما فهو ضرورة مساهمة المغرب بحظه في تنمية البحث العلمي التاريخي في موضوع يتـصل بتـاريخه على امـتـداد العـصـور وضـرورة أن تتـعـاون اللجنة المغـربيـة للتـاريخ البـحـري مع اللجنة الدوليـة للتـاريخ البـحـري في إبراز مـعطيـات تاريخنا الوطني في هذا المجـال. هذه المعطيـات التي كـان لهـا وزنهـا في حضور شخصية المغرب داخل الحركة الحضارية والتاريخية لحوض البحر الابيض المتوسط من جهة وللمحيط الاطلسي من جهة أخرى إذا اعتبرنا أن البحر هنا وهناك كان معبرا للحضارات والثقافات لأنه كان صلة الوصل بين شعوب العالم القديم والعالم الجديد على حد سواء وإن كان ذلك لم يتم مع الأسف إلا عبر ملاحم من الصراع ومآسي القرصنة والاسترقاق.

وقـبل كل شيء ينبـغي أن نذكـر بأن الجـهـاد البـحـري في التـاريخ الاسلامي لا ينبغي أن يحمل على غير مشروعية الجهاد في الاسلام ولا ينبغي أن يحمل الاسلام أوزار الذين لم يتقيدوا بشريعته في خوض الجهاد في غير ما شرع له، فالله -تبارك وتعالى- يقول: "وقاتلوا في سبيل الله

الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين".

وعلى هذا الأساس كان للجهاد الاسلامي أحكامه الشرعية وفقهه المتخصص الذي يعرفه الفقهاء والمؤرخون المتخصصون.

أيها السادة،

تعلمون أن المغرب يتميز بموقع خاص لا يماثله فيه قطر من الأقطار الأخرى وهو محاذاته للشاطئ المتوسطي والشاطئ الأطلسي على امتداد يقارب ثلاثة آلاف كيلومتر. وأن هذا الموقع الذي مكنه من التواصل مع شعوب ضفاف البحر الأبيض المتوسط التي كانت مهدا لأغنى الحضارات العالمية ومكنه أيضا من التواصل من خلال المحيط الأطلسي مع العالم الجديد ومع سواحل أروبا وإفريقيا الغربية أي مكنه من الاتصال المباشر بثلاث قارات. أقول إن موقعه هذا وفر له الكثير من أسباب الثراء المادي والثقافي، ولكنه ألقى على كاهل أبنائه وعلى تاريخه الوطني الكثير من التبعات والمسؤوليات والأدوار التي تحتاج اليوم إلى البحث والتحليل وتصحيح الأفكار والأحكام الرائجة من غير تمحيص التي هي أشبه بالمسكوكات المتداولة.

فبقدر ما كانت سواحل المغرب ولا سيما الغربية منها أبوابا مشرعة للتجارة وتبادل الإنتاج والمقايضة فإنها كانت عرضة لأطماع الطامعين وغزو الغزاة لتأسيس مراكز استعمارية وجيوب أجنبية تتحكم إلى حد ما في تكييف السياسة الداخلية للبلاد فتثير الفتن وحركات الانفصال كما هو معلوم. ولكن النتيجة الإيجابية لهذه التجربة التاريخية المديدة هي الخبرة التي اكتسبها المغاربة عبر العصور في التفاعل مع البحر ومع الشعوب التي تقابله في الضفاف الأخرى فانفتح على حضاراتها وثقافاتها وأخذ وأعطى مثل أي شعب يتمتع بالذكاء والمبادرة والنزعة الواقعية.

لقد اعتبرت بعض الدراسات الأجنبية أن المغاربة بطبعهم وبحكم ارتباطهم بالمجال الصحراوي الذي كان مصدر غناهم والموطن الأصلي لنسبة كبيرة منهم كانوا قليلي الاهتمام بمختلف أوجه النشاط البحري وذلك ما يتنافى مع واقع التاريخ، فالموحدون كانوا قد تمكنوا في العهد الموحدي من السيطرة المطلقة على الحوض الغربي للأبيض المتوسط بعد أن امتد نفوذ هذه الدولة من الحدود الليبية المصرية إلى المحيط الأطلسي ومن شمالي الأندلس إلى ماوراء الصحراء فكانت دار صناعة سفنهم بحلق المعمورة المهدية الحالية تصنع السفن المختلفة الأحجام وهو ما مكن خلفاء الموحدين الكبار من ضبط ثغور إمبراطوريتهم المترامية الأطراف وجعل أسطولهم أقوى أساطيل ذلك العصر وحذا بصلاح الدين الأيوبي أن يستنجد بيعقوب المنصور الموحدي ليمده بقوة بحرية تساعده على صد الصليبيين المتهافتين آنذاك على بلاد الشرق ثم ما لبث الأسطول المغربي أن استرجع بعد فترة من الضعف في آخر العهد الموحدي هيبته في ظل السلاطين المرينيين الذين شيدوا بسلا دار الصناعة الكبرى.

صحيح أن ذلك النشاط البحري لم يبلغ في المغرب شأوا كبيرا بالمقارنة مع بلدان أخرى وذلك لأسباب وظروف سياسية واقتصادية عرفها المغرب بعد القرن الرابع عشر الميلادي وبسبب النشاط القرصني الذي ضيق الخناق على الدول المغاربية جميعا وضرب عليها نوعا من الحصار حرمها من تأمين تجارتها ومن دعم وسائل ملاحتها.

وقد بلغت تلك المضايقات أوجها بعد احتلال ثغور مغاربية منذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادي وبذلك تحتم على المغاربة ركوب البحر دفاعا عن النفس وردا على اعتداءات بعض الدول الأوربية على سواحل المغرب. وهكذا تبوأ النشاط الجهادي البحري بالمغرب مكانة خاصة في نفوس المغاربة نظرا

للدور الأساسي الذي كان ينهض به في مؤازرة الجهاد البري الذي لم يكن يتوقف حول الثغور المغتصبة وقد شمل ذلك الجهاد البحري المدن المغربية من مليلية إلى آنفا كما شمل عددا كبيرا من موانئ المغربين الأوسط والأدنى وساهم فيه عامة الناس وخاصتهم .

وقد أعطى المورسكيون الذين استقروا بمدينة سلا والذين تعاونوا في ذلك مع إخوانهم المغاربة نفسا جديدا للجهاد البحري ومنحوه بعدا دوليا طبع الذاكرة الأوربية لعدة قرون وجعل تلك الدول تتنافس في التقرب إلى المغرب والفوز بصداقته.

أيها السادة،

لقد كان على الدولة المغربية ابتداءا من العصور الحديثة أن تهتم بالجهاد البحري بعد احتلال الكثير من المدن في شمالي المملكة وغربيها وبعد شيوع القرصنة التجارية وتهديد سيادة التراب الوطني بالتمهيد لفرض أشكال التبعية على المغرب من لدن الدول الأوربية التوسعية. فقام ملوك الدولة العلوية المنيفة مثل المولى إسماعيل وسيدي محمد بن عبد الله والمولى الحسن الأول بما كانوا يستطيعون القيام به من تجهيز الأساطيل الجهادية وبناء السفن وتحرير الثغور وتنظيم الجهاد البحري ومقاومة القرصنة وخاصة بعد أن أكدت لديهم الأطماع التوسعية الأوربية في المغرب. وبالرغم من الظروف المعاكسة والحصار الذي كانت كل الدول الأوربية تضربه على بلادنافي أشكال متنوعة استطاع الأسطول المغربي كما وقع في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله أن يفرض هيبته، بل استطاع أن يحمل بعض الدول الأوربية على السعي لكسب صداقته ودفع الاتاوات السنوية إليه.

وهكذا ظلت مسؤولية المغرب باعتباره دولة بحرية تزداد تعقيدا واتساعا في غمار المتغيرات التاريخية والسياسية والدولية التي تسارعت

وتيرتها في هذا العصر مما جعلنا مثل أسلافنا من ملوك الدولة العلوية الشريفة نحرص أشد الحرص على الاضطلاع بمسؤولياتنا كدولة ذات تاريخ عريق وحضارة متأصلة وحضور دولي عبر التاريخ في المساهمة في التوجه الدولي الراهن نحو تحقيق الوفاق والتعايش بين الشعوب.

أيها السادة،

إن لنا اليقين الكامل في أن ندوتكم هاته ستحقق نجاحا كبيرا بفضل ما توافر له من أسباب هذا النجاح وفي مقدمتها مساهمة نخبة متميزة من الأساتذة الباحثين والمؤرخين الاعلام والمفكرين من أنحاء المعمور في إغناء أبحاثها ومناقشة هذه الأبحاث التي ستلقي الأضواء الكاشفة على الكثير من القضايا وتراجع الكثير من الأحكام الهشة وتتحرى الموضوعية والحقيقة العلمية. ذلك أن التاريخ الذي علينا أن نكتبه ونلقنه للأجيال المقبلة لا ينبغي أن يكون موضوع تبجيل وتلوين عاطفي من ناحية ولا موضوع تحامل واندفاع للعصبية من ناحية أخرى وإنما يتعين أن يكون تاريخا موضوعيا يسعى إلى تجلية الحقائق فالحقائق وحدها هي التي تستطيع اليوم أن تجتذب العقول والأفكار وتقنعها وتدفعها نحو سواء السبيل، سبيل السلام بين الشعوب وانصاف تاريخها - أقول وانصاف تاريخها - والاقرار بضرورة الحوار بين الثقافات والاديان والحضارات والمؤرخون هم روادنا اليوم في هذا الاتجاه.

فهنيئا لكم أيها السادة الاساتذة بهذا الملتقى العلمي الرفيع، وهنيئا لجمعية أبي رقراق على هذا الانجاز وشكر الله جميع العاملين لانجاح هذا الملتقى والمساهمين فيه والسلام عليكم ورحمة الله.

وحرر بالقصر الملكي بالرباط في يوم الخميس
22 محرم 1418 الموافق 29 ماي 1997 .